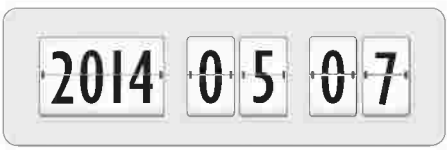

في اليوم التالي بدأت هيلاري الكلام قائلة: حسنًا، دكتورة، أنت لم تردي على سؤالي: هل ترين أن وزارتي للخارجية كانت ناجحة؟

سألتها: كيف تلخصين أنت مدة شغلك للمنصب؟

تأملت السؤال بأناة قبل أن ترد، ثم قالت أخيرًا: ثمة إيجابيات وسلبيات؛ قبل كل شيء، ما لم أنجزه. ما يؤسفني كثيرًا أنني أخفقت في جلب السلام إلى ربوع الشرق الأوسط، ولم أكن ناجحة كليًّا في وضع أفغانستان على طريق الازدهار والاستقرار، لم أتمكن من منع إيران أبديًّا من مواصلة تطوير برنامجها النووي، غير أن القرن الواحد والعشرين شهد تغيرًا كبيرًا في طبيعة القوة؛ قوة الولايات المتحدة أكبر من مجمل نجاحاتنا وإخفاقاتنا مع جملة المشكلات التي نتصدى لها، لم نعد في وضع يمكننا من تحديد أهداف البلدان الأخرى والأساليب التي يتعين عليها اعتمادها لبلوغها، مثل أب يرسل ولده إلى الجامعة، علينا أن نتيح للبلدان الأخرى فرصة اجتراح طرائقها، مهما حصل.

كنت وزيرة الخارجية الأولى على صعيد تطبيق مفهوم (القوة الذكية)، وفي ظل ولايتي باتت الموازنات الآن مشتملة على أموال مخصصة لبند الجنس

(الجندر)، ثمة مكاتب لوزارة الخارجية في البنتاغون، والإدارة الاقتصادية صارت الآن جزءًا من المسؤولية الدبلوماسية، أنا فخورة بهذه الإنجازات ومصممة على تواصل عملي بعد أن تركت المنصب، أتوقع توظيف الكثير من الوقت لمتابعة خلفائي وتزويدهم بالنصح، إذا سمحوا لي.

غير أن ما يطيب لي قوله هو أن أروع مساهمة لي بوصفي وزيرة للخارجية لم تتمثل بهذه الحركات المنفصلة، على أهميتها المحتملة، بل بإعادة موضعة بلدنا في موقع القائد الأول في عالم متغير، أسهمت في تمكين الولايات المتحدة من أن تصبح رئيسة كوكبية عظيمة مؤهلة للمساهمة في التعامل مع أزمات متوقعة، لابد من حصولها، من الخضَّات الاقتصادية إلى التغيرات البيئية والاضطرابات الاجتماعية.

مشغولون نحن راهنًا بخلق عالم قرن جديد، تمثل جزء مسؤوليتي بتقديم الولايات المتحدة إلى كل بلد، وحكومة، وجماعة بشرية ذات شأن بالنسبة إلى مُثُلنا وأمننا، الأمور أعقد مما كانت من قبل، وقد لا نكون مهددين بخطر الهجوم النووي نفسه الذي كان يتهددنا عندما كنت صغيرة، عندما كان يقال لي أن أنزل إلى ما تحت المقعد اتقاء القنبلة الذرية (كما لو كان مقعد خشبي بسيط قادرًا على حمايتي من شجرة ساقطة ناهيك عن قنبلة ذرية)، حين كنا على مفترق طريق حرب باردة مع الاتحاد السوفياتي. بدلًا من ذلك نعيش الآن مسكونين بالخوف من حصول المنظمات الإرهابية الانتحارية على مواد وأسلحة نووية.

نحن على عتبة القيام بشيء غير مسبوق، شيء نتائجه مجهولة، وبعد سنوات في المستقبل سينظر الناس إلى الخلف قائلين: «كانوا على صواب، أو كانوا على خطأ، كان عليهم أن يفعلوا هذا، أو كان يجب أن يفعلوا ذلك»، غير أن الحقيقة هي أن كل ذلك إن هو إلا فضاء غير مستكشف، لا نستطيع إلا أن

نبذل كل ما نستطيعه من جهد بغية جعل العالم أكثر جدوى بالنسبة إلى أولادنا وأحفادنا.

بلا أدنى شك تبقى أمريكا القوة الأولى في العالم على مختلف الأصعدة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وهي تتوقع وتعول على أن تظل كذلك؛ لأن الأمر هو بالمطلق في مصلحتنا كما في مصلحة العالم كله، ومع أن أمريكا ليست في وضع يمكنها من حل المشكلات العالمية كلها، فإنني لا أعتقد أن هناك مشكلة كبرى على كوكب الأرض يمكن حلها بمعزل عنا؛ لذا فإننا لانزال محافظين على مكانتنا الرفيعة.

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، كنا في ذلك الموقع بلا نقاش، وبدأنا أولًا ندرك أهمية التحالفات، ما أدى إلى ولادة الناتو، عقدنا معاهدات دفاع مشترك مع كل من اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايلندا، والفلبين في آسيا، جنبًا إلى جنب مع بلدان أخرى، ولدى زوال الاتحاد السوفياتي، برز نوع من الافتراض الفج، الزائف القائم على: «انتهى الأمر، هُزمت الشيوعية، الاتحاد السوفياتي لم يعد موجودًا، يا للفرح! بتنا قوة أكثر هيمنة مما كنا من قبل، ولم نعد إذن بحاجة إلى نسج مثل تلك العلاقات». لا، ليس صحيحًا، أي بيت من ورق اللعب يمكن دائمًا أن يتداعى، فتبادر أيد كثيرة دائمًا إلى إعادة بنائه من جديد.

وفي الوقت نفسه، آن لنا أن ندرك أننا لا نستطيع الاضطلاع بفعل كل شيء وحدنا، ما من أحد أو بلد على ذلك المستوى من كلية المعرفة أو كلية القوة، لسنا قادرين على حمل العبء النفسي (السيكولوجي) أو المسؤوليات المالية للعالم كله. نريد عالمًا تكون فيه القوى الموجودة ونظيرتها الناشئة أطرافًا شريكة مسؤولة، ولا يتعين علينا أن نتابع المسيرة وحدنا؛ مصلحتنا العميقة والأساسية تقضي إذن ببناء سلسلة من التحالفات والشبكات العالمية الشاملة.

نظرتُ إلى هيلاري برعب، معجبة بإخلاصها للإنسانية، وألقها، وروحها الإبداعية الخلاقة. قلت: لديك يا هيلاري قدر هائل من الطاقة، لماذا لا تستمرين وزيرة للخارجية إبان فترة أوباما الثانية؟

لأنني أعرف كم كنت متعبة. قد أبدو امرأة خارقة (سوبرمان) خارجيًّا، إلا أن شغل منصب وزارة الخارجية تجربة بالغة الكثافة، تشترط التزامًا دائمًا 24 على 7 (24 ساعة في كل يوم من أيام الأسبوع السبعة)، كان من الممكن إيقاظي منتصف الليل لسؤالي عن أمر ما ذي شأن، كثيرًا ما عملت وفق برامج متواصلة على مدار الساعة، ربما كنت في سفر، غائبة اثنتي عشرة ساعة ونائمة، إلا أن واشنطن كانت يقظة، أردت إعطاء الوظيفة كل شيء أو لا شيء؛ لا أريد أن أستبقي شيئًا، أردت أن أبذل كل ما استطعته من جهد لدعم الرئيس والبلد، رأيت أن من الضروري والمهم شخصيًّا بالنسبة إلي أن أقول: «سأتولى هذه المهمة كاملة لمدة أربع سنوات، ثم أنتقل إلى أمور أخرى لأنني بشر ولا أستطيع تقديم المزيد».

رفعتْ رأسها، رمقتْني، وقالت: حسنًا، دكتورة، هل ستردين على سؤالي؟ هل تعتقدين أن مدة اضطلاعي بتولي وزارة الخارجية كانت ناجحة أم لا؟

سألتها: ما رأيك أنت يا هيلاري؟

صرخت وعيناها تبرقان: نعم! كانت ناجحة.

قامت ببطء عن الأريكة ومشت نحوي، بكينا كلتانا.